٣ ــ بلاط الشهداء

بعد ألف ومائتى عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وأخفق مشروع الخلافة فى فتح الغرب من تلك الناحية ولقى الاسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام سور بيزنطية ، وقامت الدولة الشرقية فى وجه الاسلام حصنا منيعا يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الاسلام جازت الى الغرب من طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوروبا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء لاستطاع موسى ابن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من المشرق الى المغرب ، والوصول الى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية يومئذ ، وان يسود الاسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة قبرت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على ان الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوب فرنسا كانت طورا آخر من أطوار ذلك الصراع بين الاسلام والنصرانية ، فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق ، بل كانت مهمتها فى هذه الحماية اشق وأصعب ، اذ بينما كان الاسلام يهدد النصرانية من الجنوب كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق ؛ وكانت الغزوات الاسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ؛ ولكنها امتدت منذ ولاية السمح الى اكوتين وضفاف الجارون ؛ ثم امتدت الى شمال الرون وولاية بورجونيا وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ، وبهذا بدا الخطر الاسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قويا ساطعا ؛ وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم الذى يجب ان يتأهب لخوضه الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا اذن بين الاسلام والنصرانية . بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين فى اجتناء تراثها ؛ . كانت بين العرب الذين اجتاحوا املاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب ؛ وبين الفرنج الذين حلوا فى ألمانيا وغاليس . والفرنج هم شعبة من أولئك البربر الذين غزوا رومة وتقاسموا تراثها من واندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا اكثر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى واثراً . اذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ؛ الذى فاز العرب منه باكبر غنم ثم أرادوا أن ينتزعوا مابقى منه بايدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال

وكانت هذه السهول الشمالية التى قدرلها ان تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية تضم مجتمعا متنافرا لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك ان القبائل الجرمانية التى عبرت الرين وقضت على سلطان رومة فى الاراضى المفتوحة كانت مزيجا مضطربا من الغزاة الظمأى الى تراث رومه من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمال ايطاليا منذ القرن الخامس وحلوا فى جنوب غاليس وأسبانيا ؛ ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا وانتزعوا نصفها الشمالى من يدحاكمه الرومانى المستقل بامره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الاقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة امارات محلية . ولم يعن الغزاة باقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ولم يعنوا بالاخص ان يندمجوا برعاياهم الجدد ، فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين الذين لبثوا قرونا يخضعون لسلطان رومة ما تزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها . ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة وتكون وحدها مجتمعا منعزلا لبثت تسوده الخشونة والبداوة احقابا قبل ان يتأثر بمدنية رومه وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر كلوفيس اكبر عامل فى تطور هذه القبائل ، وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الارض المفتوحة ؛ وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المغامرة والتجول وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحيوية وفتور شغفها بالغزو ، واذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانيه التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج ، واستقرت فى غاليا قد تطورت فى أوائل القرن الثامن الى مجتمع مستقر متماسك نوعا . ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ الى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت وهيئت

الاسباب والعوامل لنشوء الامة الفرنسية . بيد ان هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك كان وقت ان نفذ العرب الى فرنسا فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما بينا ، وكانت أكوتين وباقي فرنسا الجنوبية في يد جماعة من الامراء والزعماء المحليين الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما في ايديهم من الاقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما وراء الرين من جهة أخرى تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ، ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ولارغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قويا في هذا النضال الذي يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها(١)

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجي في أوائل القرن الثامن أعني حينما نفذ تيار الفتح الاسلامي من اسبانيا الى جنوب فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبي العربي الى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢ م) مائة عام فقط ، ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن قد افتتحوا جميع الامم الواقعة بين السند شرقا والمحيط غربا ، واكتسحوا العالم القديم في وابل مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام الى أقاصي المغرب وأسبانيا ، وعبروا البرنيه الى أواسط فرنسا . هذا بينما انفقت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون في افتتاح أقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها .

« يتبع »

« الأدب المصري القديم - بقية المنشور على صفحة ١٨ »

وربهم هو الملك ، لكن لكل من الجملتين معناها الخاص على رغم تشابه الغرض . ثم انظر كيف يصف واقعة في موضع آخر :

« أولئك الذين يدخلون الى هذا القبر
أولئك الذين يرون مافيه »

هاتان الجملتان تبدوان للقارىء السطحي تكراراً ، لكن القارىء الدقيق الاحساس يستطيع ان يتبين فيهما فرقا اراده الشاعر المصري القديم ، هو يريد ان يأخذ يد الداخل الى القبر فيضعها على مافي القبر من نقوش وتحف ، أكثر مما فيه من شيء آخر . أليس في هذا منتهى دقة الحس ونعومة التصوير ؟

---

(١) راجع Creasy:Decisive Battles الفصل السابع ففيه استعراض حسن لاحوال المجتمع الجرماني في هذا العصر وعرض شائق لحوادث موقعة تور . راجع أيضا Zeller:Hist de L'Allemagne, Ch. VII

الجناس

وكما يشتهر المصريون في الوقت الحاضر بحبهم الشديد للجناس اللفظي ، الذي تفيض به الاغاني والاشعار الدارجة ، فأن أجدادهم المصريين القدماء هم أصل هذا التراث الفني البديع ، الذي يلذ للقارىء ان يطالعه ، وينعم بفكاهاته .

خذ مثلا الاغنية المصرية الدارجة :

يادى الجمـــال والدلال والحب ونهاره
والشّعر فوق الجبـــين كالليل ونهاره
والدمع فاض م الجفون كالبحر وانهاره
قلبي أســـير في هواك ويحـــل انهاره ؟

والكلمات الاخيرة في كل الابيات متشابهة النطق لكنها تؤدي معاني مختلفة تمام الاختلاف .

مثل هذا الجناس كثير في الشعر المصري ، وجميل ، لكنه مستحيل الترجمة لأن اللعب فيه يدور على الالفاظ في علاقاتها بالمعاني ، فاذا ماتغير اللفظ بترجمته فقد الجناس بطبيعة الحال ، ومع ذلك فسأحاول أن أنقل هنا بضعة شطرات من هذا الشعر الذي يحتوي الجناس وانا أعربه عن المصرية بتصرف كبير لأوفق فيه الفاظ الجناس ، وأقربها للفهم لا أكثر ولا أقل

هي قصيدة طويلة في وصف عربة الحرب قال فيها واصفها :

« عرفت رأسها كل البلاد ، وخر لها القواد »

ورأس العربة أي مقدمتها ، وإذ دخلت في ركاب الملك كل البلاد فقد عرفتها ، ولأنها مصنوعة على شكل رأس كبش رمزا لآمون إله هذا العصر فان القواد جميعهم خروا سجدا لهذا الرأس . ثم يقول :

« مقابض عربتك عنات وعشتر »

يريد بذلك من جهة مقابض العربة ، التي يمسكها الملك وهو يحارب فيها ، من الجهة الأخرى أن القابضين على زمام العربة هما إلها الحرب في الغربة

ولا يستطيع القارىء مطلقا ان يتذوق جمال هذا الجناس الا وهو يقرأ النص المصري القديم الذي يدل على مبلغ ماوصل اليه المصريون من الافتنان في الشعر والصنعة الشعرية ، ومبلغ حبهم للنكتة والتورية منذ أربعين قرنا مضت ، ناطحتهم فيها شدائد توهن أصلب الاعواد ، ومع ذلك لم تذهب بروحهم الكبيرة ، ونفسهم المرحة ، مدى هذه القرون الطويلة ؟